

مفهوم المزية عند عبد القاهر الجرجاني بحث في الخصائص الجمالية للنص الأدبي

د. عبد الرحمن إكيدر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية

جامعة الحسن الثاني - المغرب

تاريخ القبول: 2021-03-19

تاريخ الإرسال: 2021-02-26

ملخص :

ستركز هذه الدراسة على تحديد مفهوم المزية عند عبد القاهر الجرجاني (ت. 471 هـ)، وإبراز أهميتها في تشكل جمالية النص، فلقد بين صاحب الدلائل والأسرار على أن معيار التفاضل بين نص وآخر هو معيار المزية الذي يتشكل على مستويي الاختيار والتركيب، وعلى هذا الأساس يتم التمييز بين النصوص، معتبرا أن للمزية بدورها درجات يتفاوت فيها الكلام بين العادي والأدبي والبلغ، وهذا يدعونا لتعميق النظر حول هذا المفهوم من خلال الإجابة عن التساؤلات الآتية : ما المقصود بالمزية عند الجرجاني ؟ وماهي المواطن التي تبدى فيها ؟ وكيف تُسهم في تشكل جمالية النص الأدبي ؟

الكلمات المفتاحية : المزية؛ جمالية النص؛ التفاضل؛ الاختيار؛ التركيب.

Abstract :

This study will focus on determining the identity of the feature and highlighting its importance in shaping the aesthetics of the text, as well as its roots and draws from its sources, and sheds light on the originator and recipient of this feature. Al-Jarjani focused on this basis distinctions are made in the texts, considering their share, degrees in which speech varies.

This invites us to deepen our consideration of this concept by answering the following questions: What is the feature? And how to contribute to the formation of the aesthetic text?

Key words : the feature; aesthetics of the text; Syntagma; paradigm.

البحث:

توطئة:

إن المتتبع لكتابات عبد القاهر الجرجاني (ت. 471 هـ) في الدلائل والأسرار سيلحظ عددا من المفاهيم المرتبطة بنظريته في النظم التي يوظفها بشكل لافت وبتردد ملحوظ حتى تتضح معالم هذه النظرية وتترسخ في ذهن القارئ. وتعد "المزية" من أبرز هذه المفاهيم التي اعتبرها الجرجاني آلية للتفاضل بين النصوص، وتعليل أدبيتها وجمالياتها على مستويي الاختيار والتركيب، وذلك من خلال البحث عن الدلالات المجازية المتمثلة في الاستعارة والكناية والتمثيل ... أو عن طريق المعاني من حذف وتقديم وتأخير وفصل ووصل إلى غير ذلك مما نجده في النصوص الفنية.

لقد عني عبد القاهر عناية فائقة ببيان مفهوم المزية ومواقعها في النصين القرآني والشعري، وذلك بالبحث عن الأسرار والدقائق التي تجعل من نص ما، نصا أدبيا، متفردا بمعانيه وصوره وأصاليه، يحمل في طياته خصائص جمالية وسمات أسلوبية، معتبرا هذا المفهوم الأساس الذي تركز عليه القراءة الناقدة التي تتوخى سر النص، وتروم كشف خباياه ودقائقه وإبراز قيمته الفنية.

مفهوم المزية :

تشير لفظة (المزِيَّة) في المعاجم العربية إلى الفضيلة التي يمتاز بها شخص عن غيره، وجمعها: (مزيات) و(مزايا). وهذا التعريف يحيلنا على مجموعة من الدلالات المتقاربة التي ترتبط بالمزية وتحددها من قبيل الفرز والتصنيف والتفريق والمقارنة والتمحيص. وتحضر هذه اللفظة مترددة بقوة في دلائل الإعجاز بمختلف اشتقاقاتها، مقترنة بعدد من الألفاظ الأخرى: النبل والأريحية والفضل والحسن...

لقد ركز الجرجاني في الدلائل خصوصا على بيان المزية ووصفها وتعيينها ورصد أمثلها والتأكيد على دورها في الكشف عن جمالية النص وتفرد، وذلك من خلال رصد أشكال حضورها بهدف التفريق بين نص وآخر، والمقارنة بينهما وتصنيفهما، وتمحيص كل نص على حدة، ووضع الأصبع على مكنم الفضل والحسن وسر تفوق هذا عن ذاك. يقول صاحب الدلائل والأسرار: "أَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ كَلَامٍ تَسْتَحْسِنُهُ، وَلَفْظٍ تَسْتَجِيدُهُ، مِنْ أَنْ يَكُونَ لِاسْتِحْسَانِكَ ذَلِكَ جِهَةٌ مَعْلُومَةٌ وَعِلَّةٌ مَعْقُولَةٌ وَأَنْ يَكُونَ لَنَا إِلَى الْعِبَارَةِ عَنْ ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَعَلَى صِحَّةِ مَا ادْعَيْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ دَلِيلٌ"⁽¹⁾. حيث يدعونا عبد القاهر إلى البحث عن العلل التي تقودنا لفعل التمييز والاستحسان، عبر ظواهر بلاغية وفق ما هو محقق في النص. يقول طارق النعمان: "ولهذا، فلا يمكن إدراك تلك الآلية إلا انطلاقا من إدراك الاختلافات والفروق فيما بين الخطابات، بداية من النماذج التي تكون في الدرجة الصفر، مثل (زيد ينطلق)، ومرورا بما يعلوها حتى يمكن بلوغ الهدف. ولكن لعله ينبغي التنبيه - أيضا - إلى أن كون عبد القاهر يرى أن المزية إمكان، لا يعني أنه يراها كإمكان مفتوح؛ ذلك أن

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود نجاد شاكر، مطبعة المدني، جدة، ط 3، 1992، ص 41.

هذا الإمكان قد وجد أقصى تحقيق له في نص محدد بعينه، هو النص القرآني أو لنقل بعبارة أخرى؛ إن هذا الإمكان قد تم غلقه من خلال النص القرآني، وإن لم يكن ثمة ما يمنع - بالطبع - من كونها إمكانا متنوعا⁽²⁾.

يجعل الجرجاني من المزية معيارا للتصنيف بين النصوص وتحديد جمالية النص الأدبي؛ وانطلاقا من ذلك فإنه يفرق بين نموذجين أو نمطين من أنماط الخطاب :

- النمط الأول : يكاد لا تجب له مزية، ولم يحتج واضعه إلى فكر وروية، وانتظامه لا يستهدف تكوين هيئة أو صورة، وإنما هو محض ضم لوحداث مستقلة.

- النمط الثاني : تجب له المزية، ويقترن - على الضد من السالف - بكل ما نفى عن الأول، أي أنه قرين الفكر والروية، والصورة والتخير، بل ولعله أيضا قرين الغوص⁽³⁾.

يشير عبد القاهر إلى أن المزية تظهر من خلال وجوه عدة، إذ يمكن اعتبارها الجانب الأسلوبى الفني الذي يحدثه المنشئ أو المبدع في موضع دون موضع، ويتأتى للكلمة في مقام دون مقام في نظم الكلم، وبحسب المعاني والأغراض، ووفق المواقع التي تحتلها والاستعمال الذي يلحقها، فإن راقنا تقديم المفعول على الفعل في كلام ما، فإنه لن يروق لنا في كلام آخر، وهذا الجانب لا يرتبط بالقواعد النحوية المعيارية، لأن هذه القواعد مشتركة بين أبناء اللغة. يقول الجرجاني : "ومن ههنا لم يُجَزَّ، إذا عُدَّ الوجوه التي تظهر بها المزية، أن يُعَدَّ فيها الإعراب، وذلك أن العلم بالإعراب مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْعَرَبِ كُلِّهِمْ، وَلَيْسَ هُوَ مِمَّا يُسْتَنْبَطُ بِالْفِكْرِ، وَيُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِالرُّوْيَةِ. فَلَيْسَ

(2) طارق النعمان، اللفظ والمعنى، بين الإيديولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، سينا للنشر، القاهرة، 1994، ص ص 254 - 255.

(3) نفسه، ص 258.

أحدهم، بأنَّ إعرابَ الفاعلِ الرَّفْعِ أو المفعولِ النَّصْبِ، والمضَافِ إِلَيْهِ الجُرِّ، بِأَعْلَمَ مِنْ غَيْرِهِ وَلَا ذَاكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى حِدَّةِ ذَهْنٍ وَقُوَّةِ خَاطِرٍ⁽⁴⁾.

كما لا تحصل المزية بظاهر اللفظ وحده، ولا بالصوت ومخارج الحروف؛ ذلك أن اللفظ يكون فصيحاً من أجل مزية تقع في معناه، لا من أجل جرسه وصداه؛ وإنما هي عبارة عن مزية أفادها المتكلم في المعنى، وهذا الأمر يتطلب فكراً وتأملًا وروية⁽⁵⁾ ثم إنَّنا نَعْلَمُ أَنَّ المَزِيَّةَ المطلوبةَ في هَذَا البابِ، مَزِيَّةٌ فِيمَا طَرِيقُهُ الفِكْرُ والنَّظَرُ مِنْ غَيْرِ شُبْهَةٍ. ومَحَالٌّ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ لَهُ صِفَةٌ تُسْتَنْبِطُ بِالفِكْرِ، وَيُسْتَعَانُ عَلَيْهَا بِالرَّوْيَةِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تُرِيدَ تَأْلِيفَ النِّعَمِ. وَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِسَبِيلٍ⁽⁵⁾. يؤكد الجرجاني غير ما مرة على أن حدوث المزية مرتبط بالأساس بتوخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم. كما يشير من جهة أخرى إلى أن العلماء عظموا من شأن النظم ونوهوا بذكره ووينوا فضله واعتبروه القطب الذي عليه المدار، غير أنهم لم يبرزوا أسرارَه ودقائقه و"أَيَّ شَيْءٍ هُوَ؟ وَمَا مَحْصُولُهُ وَمَحْصُولُ الْقَضِيلَةِ فِيهِ؟ فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَأْخُذَ مِنْ ذِكْرِهِ، وَبَيَانِ أَمْرِهِ، وَبَيَانِ المَزِيَّةِ الَّتِي تُدْعَى لَهُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِيهِ؟ وَكَيْفَ تَعْرِضُ فِيهِ؟ وَمَا أَسْبَابُ ذَلِكَ وَعِلْلُهُ؟ وَمَا الْمَوْجِبُ لَهُ؟"⁽⁶⁾.

لقد توقف صاحب الدلائل والأسرار عند نصوص كل من سابقه ومعاصريه وقفة متأنية فاحصة مدققة، يروم من خلالها تمحيص مغزاها وكشف دالاتها وبيان صحتها، يقول عبد القاهر: "وَلَمْ أَرَلْ مُنْذُ خَدَمْتُ الْعِلْمَ أَنْظُرُ فِيمَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَى (الْفَصَاحَةِ)، وَ(الْبَلَاعَةِ)، وَ(الْبَيَانِ) وَ(الْبَرَاعَةِ)، وَفِي بَيَانِ الْمُعْزَى مِنْ هَذِهِ

(4) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 395.

(5) نفسه.

(6) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 80.

العِبَارَات، وَتَفْسِيرِ الْمُرَادِ بِهَا، فَأَجِدُ بَعْضَ ذَلِكَ كَالرَّمَزِ وَالْإِمَاءِ، وَالْإِشَارَةِ فِي خَفَاءٍ، وَبَعْضُهُ كَالْتَنْبِيهِ عَلَى مَكَانِ الْحَبِيِّ لِيُطْلَبَ، وَمَوْضِعِ الدَّفِينِ لِيُبَحَثَ عَنْهُ فَيُخْرِجَ⁽⁷⁾. فلم يكن المراد من هذه الوقفة البحث عن المعاني الظاهرة لتلك النصوص، بل سعى الجرجاني إلى التنقيب عن المغزى الخبيء وراء أقوال أصحاب هذه النصوص وعباراتهم، ف"لم يكن عبد القاهر في قراءته لنصوص سابقه مفسرا فقط، بل كان في أحيان كثيرة لا يجد مفرا من الرفض والنفي. فهو يرفض - مثلا - ربط الفصاحة والبيان بالقدرة على الأداء الصوتي، وهو ربط شائع مستقر في التراث السابق على عبد القاهر، ونجده واضحا في كتاب الجاحظ (البيان والتبيين) ... وعن طريق هذا النفي والرفض يمهّد عبد القاهر الطريق لمفاهيم أنضج، وتصورات أعمق"⁽⁸⁾.

ينطلق الجرجاني في بيان مفهوم المزية من مناقشة آراء سابقه خصوصا القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت. 415 هـ)، الذي أرجع المزية إلى جزالة اللفظ، وفسر الفصاحة بأنها خصوصية في نظم الكلم وضم بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة، يقول القاضي عبد الجبار: "واعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بدّ مع الضمّ أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضع التي تتناول الضمّ، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع؛ لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة، أو حركاتها، أو موقعها. ولا بدّ من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بدّ من اعتبار مثله في الكلمات، إذا انضم بعضها إلى بعض؛ لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها، فعلى هذا الوجه الذي

(7) نفسه، ص 34.

(8) نصر أبو زيد، مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، قراءة في ضوء الأسلوبية، مجلة فصول، المجلد 5، 1985، ص 12

ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها"⁽⁹⁾. وهكذا يتبين أن القاضي عبد الجبار، من خلال هذا النص، قد حصر مزية الفصاحة في أمور ثلاثة:

- الدلالة الذاتية : المواضعة.
- الدلالة الإعرابية : الإعراب.
- الدلالة السياقية : الموقع.

يحدد القاضي عبد الجبار مواطن المزية في اختيار لفظة دون غيرها أو في موقعها من تقديم أو تأخير أو في حركتها الإعرابية، معتبرا أن التفاضل بين كلام وكلام يكون بكل ذلك أو ببعضه. كما أشار إلى أن المعاني لا تظهر فيها مزية الفصاحة، لذلك قال: "إن المعاني وإن كان لا بد منها فلا تظهر فيها المزية، وإن كانت تظهر في الكلام لأجلها. ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر، والمعنى متفق.. فهو مما لا بد من اعتباره، وإن كانت المزية تظهر بغيره. على أنا نعلم: أن المعاني لا يقع فيها تزايد، فإذا يجب أن يكون الذي يعتبر؛ التزايد عند الألفاظ، التي يعبر بها عنها"⁽¹⁰⁾.

لقد تصدى الجرجاني لآراء القاضي عبد الجبار مستبعدا أن تكون المزية للفظ من حيث الوزن والنغم أو الإعراب، فليس للألفاظ مزية وهي منفردة بعيدة عن التركيب، إنما مزيته وتخصيصها يكون إذا توخى فيها نظم معين حسب ضروب الكلام وأغراضه. وإن مدلول الألفاظ وهي مجتمعة، هي التي تحدد لكل لفظة دورها في الأداء. "فالكلمة المفردة لا قيمة لها تذكر، والكلمتان لا تتفاضلان إلا من حيث

(9) القاضي عبد الجبار، المعنى في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق : أمين الخولي، ج 16 (عجاز القرآن)، مطبعة دار الكتب، مصر، 1960، ص 199.

(10) القاضي عبد الجبار، المعنى في أبواب التوحيد والعدل، صص 199 – 200.

الصفات التي من شأنها أن تكون أوصافاً للمعجم الأدبي، كأن تكون مستعملة مألوفاً، أو غريبة وحشية أو نحو ذلك، أما ما عدا ذلك فلا يحكم للكلمة أو عليها إلا من خلال النظم، الذي يكسب الكلمة حياتها، وتتفاعل فيه مع غيرها من حيث هي معنى لا نطق لسان، وعلى هذا يبقى كل فضل ومزية ينسب للفظ في كلام ما من باب الوهم لا يثبت عند التحقيق والتأمل⁽¹¹⁾.

ينتقد الجرجاني كذلك أولئك الذين أفردوا اللفظ عن المعنى، فقسموا الشعر إلى :

- ضرب حسن لفظه دون معناه.
- ضرب جاد معناه دون لفظه.
- ضرب حسن لفظه وجاد معناه.
- ضرب ساء لفظه ومعناه.

معتبراً أنهم يصفون اللفظ انطلاقاً من ذلك بأوصاف لا يشمل المعنى منها شيء. فينعتونه بالحسن والمزية والنبيل والشرف. كما ناقش الجرجاني أنصار المعنى "الذين ينسبون المزية إلى المعنى، ويرى أن الحكم على الكلام من خلال المعنى غلط وقع فيه بعض القدماء، لأنهم كانوا يسعون وراء المضمون، منصرفين عن الأبعاد الجمالية التي هي نتاج الإبداع الفني، لذلك شدد الإمام في إنكار ذلك المذهب ورفضه"⁽¹²⁾.

يؤكد عبد القاهر في أكثر من موضع على أن المزية تتحقق في النظم ومن خلال توخي معاني النحو وأحكامه بين الكلم. وهو بذلك يرفض من أولئك الذين يعتبرون أن المزية المحصورة بنظم الكلم مقتصرة بنظم الألفاظ دون المعاني، أي دون المزية

(11) حامد صالح الربيعي، القراءة الناقدة في ضوء نظرية النظم، سلسلة بحوث اللغة العربية وآدابها، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1417 هـ، ص 28.

(12) حامد صالح الربيعي، القراءة الناقدة في ضوء نظرية النظم، ص 28.

الأخرى المتمثلة في توخي معاني النحو، فإنهم بذلك لن يصلوا إلى حقيقة الإعجاز، لأن المعاني عندهم لا تتزايد وإنما تتزايد الألفاظ. كما لم يعتنوا بتحديد مكان هذه المزية في الكلام ووصفها وذكرها بطريقة بينة، ولم يوضحوا معنى الخصوصية في طريقة النظم، والطريقة المخصوصة في نسق الكلام بعضها على بعض. إن المزية عند الجرجاني تستنبط بالفكر ويستعان عليها بالروية، معتبرا أن ما ذهب إليه العلماء ليس كافيا ويحتاج إلى تدقيق وإعادة نظر.

● المزية بين المتكلم والمتلقي :

لقد ذهب الأشاعرة إلى تأكيد حقيقة مفادها أن اللغة ليست مجموعة من الأصوات أو الألفاظ كما يتصورها المعتزلة، بل هي نظام من العلاقات بين هذه الألفاظ يعلق المتكلم معاني بعضها ببعض من خلال مجموعة من الروابط التي تنشأ بين المفردات، ومن خلال هذه العلاقات تتم الفائدة. وقد كان اهتمام الجرجاني منصبا على الاعتناء بالمتكلم وما يدور في نفسه، يقول: "فَإِنَّ الِاعْتِبَارَ يَنْبَغِي أَنَّ يَكُونَ بِحَالِ الْوَاضِعِ لِلْكَلَامِ وَالْمُؤَلِّفِ لَهُ، وَالْوَاجِبُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى حَالِ الْمَعَانِي مَعَهُ لَا مَعَ السَّامِعِ" (13).

لقد أولى الجرجاني في نظريته للنظم عناية فائقة بالمتكلم، مشيرا إلى أن الفصاحة هي عبارة عن مزية خاصة بالمتكلم، يقول موضحا ذلك إن "الْفَصَاحَةُ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ، عِبَارَةٌ عَنْ مَزِيَّةٍ هِيَ بِالْمَتَكَلِّمِ دُونَ وَاضِعِ اللَّغَةِ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَنْظُرَ إِلَى الْمَتَكَلِّمِ، هَلْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزِيدَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ فِي اللَّفْظِ شَيْئًا لَيْسَ هُوَ لَهُ فِي اللَّغَةِ،

(13) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 417.

حَتَّى يَجْعَلَ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعِهِ مَزِيَّةً يُعَبِّرُ عَنْهَا بِالْفَصَاحَةِ؟ وَإِذَا نَظَرْنَا وَجَدْنَاهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَ بِاللَّفْظِ شَيْئاً أَصْلاً، وَلَا أَنْ يَحْدِثَ فِيهَا وَضْعاً⁽¹⁴⁾.

إن المزية عند الجرجاني تتطلب من المتكلم إعمال الفكر والنظر، مؤكداً أن قوانين النحو المعيارية لا تترتب عنها وحدها مزية أو تفاضل في مستويات الكلام، ذلك أن العلم بهذه القوانين مشترك بين العرب كلهم، ولا يملكه أحد على وجه الخصوص، وإنما هو حق مشاع بين جميع من يملك تلك القوانين المنتجة للكلام. يقول أحمد العلوي: "وإن المزية في المعنى أي الشيء الزائد الذي يضيفه المتكلم. أما أوضاع اللغة فلا يتصور فيها أن يضيف إليها المتكلم شيئاً. أوضاع اللغة هي الألفاظ وقوانينها. وبالمناسبة يلاحظ أن الجرجاني يقصد أن اللغة تنتجها القواعد في استقلال عن العالم والأشياء أي أنها تنتج طائفة من الألفاظ التي تكون لها دور بعد اتصالها بالأشياء وبالعالم للتعبير عنه ومن العالم فكر الإنسان المعبر عنه. إن هذه القواعد وهذه الإنتاجات اللغوية مستقلة كل الاستقلال عن إرادة المتكلمين ومقاصدهم وقدراتهم الخاصة. نعتقد أن هذا هو معنى اعتبار النحو درساً للغة من الجهة اللفظية. المتكلم هو الذي يضيف المعنى وينتج المزية الراجعة إلى المعنى. بلغة أخرى يمكن أن يقال إن هناك ما يرجع إلى النسق المستقل عن المتكلمين وهناك ما يرجع إلى المتكلمين في استقلال عن النسق"⁽¹⁵⁾.

يبين الجرجاني دور المتكلم في النظم وإحداث المزية، وهذا يتطلب منه التوظيف الأمثل للثروة اللغوية المتمثل في حسن استعمالها وتأثيرها في معنى خاص يجعل من

(14) نفسه، ص 401.

(15) أحمد العلوي، الطبيعة والتمثيل مسائل عن الإسلام والمعرفة، الشركة المغربية للنشر والتوزيع، الرباط، صص 253-254.

التركيب اللغوي الناتج قولاً ذا ميزة يعكس خصائص فنية، ويضفي جمالية على النص. وهكذا فإن المزية تنتج عن الحرية المتاحة للمتكلم في اختيار معاني الألفاظ باعتبارها المواد الخام التي يتشكل منها النظم، والصيغ والأساليب المعبرة عن الغرض المراد. "إن كل ما يفعله الشاعر - أو المتكلم - في ألفاظ اللغة، هو أن يقيم بينها علاقات يتوخى فيها معاني النحو التي يتحدث عنها عبد القاهر هي (القوانين المعيارية) التي يتحتم أن تتحقق في أي كلام لكي يكون كلاماً، ولكنها المعاني التي تحدث الفروق بين أسلوب وأسلوب، وبين نظم ونظم. إن قوانين النحو المعيارية هي بدورها قوانين وضعية لا تفرق بين كلام وكلام، شأنها في ذلك شأن دلالات الألفاظ المفردة. وليست المزية التي تحدث في الكلام - فيما يرى عبد القاهر - بمجرد علم المتكلم بتلك الفروق التي تحدثها المعاني النحوية؛ العلم وحده لا يكفي، ولا بد من القدرة التي تمكن المتكلم أو الشاعر من استخدام هذا العلم وتوظيفه توظيفا مؤثراً دالاً"⁽¹⁶⁾.

وإذا كان الجرجاني قد أكد على دور المتكلم باعتباره منتجا للمزية، فإنه في المقابل لا يسقط دور المتلقي في تلقي هذه المزية وإدراكها واستحسانها ومعرفة فوائدها الجليلة ومعانيها الشريفة. إن إدراك المزية في النص يتطلب ضرورة متلقياً يمتلك قدرة على بيان مواطن المزايا الظاهرة والخفية في النص وكشف أسرارها وتعليل وجودها وما أكسبته للنص من فضيلة وحسن، "لأنَّ المَزَايَا الَّتِي تَحْتَاجُ أَنْ تُعْلِمَهُمْ مَكَانَهَا وَتَصَوِّرَ لَهُمْ شَأْنَهَا، أُمُورٌ خَفِيَّةٌ، وَمَعَانٍ رُوحَانِيَّةٌ، أَنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُبَيِّنَ السَّمَاعَ لَهَا، وَتَحْدِثَ لَهُ عِلْمًا بِهَا، حَتَّى يَكُونَ مُهَيِّئًا لِإِدْرَاكِهَا، وَتَكُونَ فِيهِ طَبِيعَةٌ قَابِلَةٌ لَهَا، وَيَكُونُ لَهُ ذَوْقٌ وَقَرِيحَةٌ يَجِدُ هُكْمًا فِي نَفْسِهِ إِحْسَاسًا بِأَنَّ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ الْوُجُوهِ وَالْفُرُوقِ أَنْ تَعْرِضَ فِيهِ

(16) نصر أبو زيد، مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، قراءة في ضوء الأسلوبية، ص 17.

الْمَزِيَّةَ عَلَى الْجُمْلَةِ وَمَنْ إِذَا تَصَفَّحَ الْكَلَامَ وَتَدَبَّرَ الشَّعْرَ، فَفَرَّقَ بَيْنَ مَوْقِعِ شَيْءٍ مِنْهَا وَشَيْءٍ" (17).

وعلى هذا الأساس فإن المتلقين ليسوا على درجة واحدة من المعرفة والإحساس والتذوق لإدراك مواطن الجمال والمزايا في النصوص. ولهذا يستثني الجرجاني في عملية الإدراك الجمالي القراء البسطاء الذين لا يفهمون من النصوص إلا المقاصد الظاهرة، يقول: "فَإِنَّكَ تَعْلَمُ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنَّ هَذَا الضَّرْبَ مِنَ الْمَعَانِي، كَالْجَوْهَرِ فِي الصَّدْفِ لَا يَبْرُزُ لَكَ إِلَّا أَنْ تَشْفَهُ عَنْهُ، وَكَالْعَزِيرِ الْمُخْتَجِبِ لَا يُرِيكَ وَجْهَهُ، حَتَّى تَسْتَأْذِنَ عَلَيْهِ، ثُمَّ مَا كُلُّ فِكْرٍ يَهْتَدِي إِلَى وَجْهِ الْكَشْفِ عَمَّا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ، وَلَا كُلُّ خَاطِرٍ يُؤْذِنُ لَهُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ، فَمَا كُلُّ أَحَدٍ يُفْلِحُ فِي شَقِّ الصَّدْفَةِ، وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ، مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ، كَمَا لَيْسَ كُلُّ مَنْ دَنَا مِنْ أَبْوَابِ الْمُلُوكِ فُتِحَتْ لَهُ" (18). يبرز عبد القاهر دور المتلقي الحاذق القادر على سبر أغوار النص واستخراج درره، ولا تقاطع معانيه العميقة؛ فالمتلقي عنده يشبه الغواص الماهر، يكد ويبدل الجهد باحثاً عن الأصداف والجواهر فلا يقل جهده في استخراج المعاني عن دور منشئها ومبدعها، يقول: "وَإِنْ تَوَقَّعْتَ فِي حَاجَتِكَ أَهْلَهَا السَّامِعَ لِلْمَعْنَى إِلَى الْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِهِ، فَهَلْ تَشْكُ فِي أَنَّ الشَّاعِرَ الَّذِي أَذَاهُ إِلَيْكَ، وَنَشَرَ بَرُهُ لَدَيْكَ، قَدْ تَحْمَلُ فِيهِ الْمَشَقَّةَ الشَّدِيدَةَ، وَقَطَعَ إِلَيْهِ الشَّقَّةَ الْبَعِيدَةَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَى دَرِهِ حَتَّى غَاصَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَنَلِ الْمَطْلُوبَ حَتَّى كَابَدَ مِنْهُ الْإِمْتِنَاعَ وَالْاعْتِيَاصَ" (19).

(17) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 547.

(18) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود نجاد شاكر، مطبعة المدني، جدة، ط 1، 1991، ص 141.

(19) نفسه، ص 145.

لقد تناول الجرجاني في حديث مستفيض إسهام المتلقي ودوره الفعال في عملية البحث عن المزية في النص، منبها إلى ضرورة أن تكون لهذا المتلقي خبرة ومعرفة حتى يتمكن من الوقوف عند دفائن الصورة، "فإذا كان لصاحب النص فضل الإنجاز ومزية التأليف والإنشاء، فإن لقارئ النص فضيلة الإغناء ومزية الإحياء... ذلك أن التأليف والإنشاء، والقراءة وجهان لعملية واحدة. فالنص لا يكتب إلا ليقرأ، ولا تكون قراءة بغير نص"⁽²⁰⁾. إن القارئ يوظف خبراته اللغوية وغير اللغوية لفهم النص، وما يحتويه من مزايا ظاهرة كانت أو خفية، وتأويلها تأويلا يقترب من الغرض الذي عقده المتكلم حتى يهتدي إلى المراد والمعنى المقصود، ولن يتأتى له ذلك، إلا بعد مشقة ومكابدة في التدبر والنظر الدقيق. فعبد القاهر يدعو القارئ باستمرار إلى ضرورة حشد تفكيره للوصول إلى الفهم الثاقب وإدراك المعنى الصائب، متسلحا بلطف النظر وقوة الذهن، والمواظبة على التدبر، والصبر على التأمل، وهمة لا تأبى إلا الاقتناع بالتمام.

لقد أشار الجرجاني إلى أن فهم الكناية، مثلا، يكون عن طريق المعاني المدركة بالعقل والتدبر والبحث في ما وراء العبارة من دلالات عميقة، وليس عن طريق اللفظ، أي ما تظهره في بنيتها السطحية. فالأخذ بالظاهر قد يؤدي إلى إبطال الغرض المقصود، يقول موضحا ذلك: "فإنهم لا يعنون أنفس المعاني، كالتّي يقصد المتكلم بحره إليها، كالقري والشجاعة والتردد في الرأي، وإنما يعنون إثباتها لما تثبت له ويخبر بها عنه. فإذا جعلوا للكناية مزية على التصريح، لم يجعلوا تلك المزية في المعنى المكتى عنه، ولكن في إثباته للذي ثبت له، وذلك أننا نعلم أن المعاني التي يقصد الخبر بها لا تتغير في أنفسها بأن يكتى عنها بمعانٍ سواها، ويترك أن تذكر بالألفاظ

(20) قاسم المومني، علاقة النص بصاحبه (دراسة في نقود عبد القاهر الجرجاني الشعرية)، مجلة عالم الفكر، ع 4، المجلد 25، أبريل 1998، ص 123.

الَّتِي هِيَ لَهَا فِي اللَّعَةِ. وَمَنْ هَذَا الَّذِي يَشْكُ أَنْ مَعْنَى طُولِ الْقَامَةِ وَكَثْرَةِ الْقِرَى لَا يَتَغَيَّرَانِ بِأَنْ يُكْتَى عَنْهُمَا بِطُولِ النَّجَادِ وَكَثْرَةِ رَمَادِ الْقَدَرِ، وَتَقْدِيرِ التَّغْيِيرِ فِيهِمَا يُؤْدِي إِلَى أَنْ لَا تَكُونَ الْكِتَابَةُ عَنْهُمَا، وَلَكِنْ عَنْ غَيْرِهِمَا؟⁽²¹⁾.

يبين صاحب الدلائل والأسرار التأثير النفسي للمزية على المتلقي وما تحلّفه في النفس من أريحية وميل للقلوب، موضحاً ذلك بعدد من الشواهد القرآنية والشعرية، ومتوقفاً عند مجموعة النصوص المتضمنة لأجناس بلاغية تُكسب المعاني مزية وفضلاً، وتوجب لها شرفاً ونبلاً، وأن تفحمها في نفوس السامعين. فيقول مثلاً: "فَأَنْتَ الْآنَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى قَوْلِهِ :

فَأَسْبَلْتَ لَوْلَا مِنْ نَرْجِسٍ، وَسَقَمْتُ وَزُدَا، وَعَضَّتْ عَلَى الْغُنَابِ بِالْبَرْدِ

فَرَأَيْتَهُ قَدْ أَفَادَكَ أَنَّ (الدَّمْعَ) كَانَ لَا يَخْرَمُ مِنَ اللَّوْلُو، وَ(الْعَيْنَ) مِنْ شِبْهِ النَّرْجِسِ شَيْئًا، فَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ سَبَبَ الْحُسْنِ الَّذِي تَرَاهُ فِيهِ، وَالْأَرْيَحِيَّةَ الَّتِي تَجِدُهَا عِنْدَهُ، أَنَّهُ أَفَادَكَ ذَلِكَ فَحَسَبُ. وَذَلِكَ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجِيءَ بِهِ صَرِيحًا فَتَقُولَ: (فَأَسْبَلْتَ دَمْعًا كَأَنَّهُ اللَّوْلُو بَعِيْنَهُ، مِنْ عَيْنٍ كَأَنَّهَا النَّرْجِسُ حَقِيقَةً)، ثُمَّ لَا تَرَى مِنْ ذَلِكَ الْحُسْنِ شَيْئًا. وَلَكِنْ اعْلَمْ أَنَّ سَبَبَ أَنْ رَاقَكَ، وَأَدْخَلَ الْأَرْيَحِيَّةَ عَلَيْكَ، أَنَّهُ أَفَادَكَ فِي إِثْبَاتِ شِدَّةِ الشُّبْهِ مَزِيَّةً، وَأَوْجَدَكَ فِيهِ خَاصَةً قَدْ غُرِرَ فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَرْتَاخَ لَهَا، وَيَجِدَ فِي نَفْسِهِ هِزَّةً عِنْدَهَا، وَهَكَذَا حُكْمُ نَظَائِرِهِ كَقَوْلِ أَبِي نَوَّاسٍ:

تَبْكِي فُتْدِرِي الدُّرَّ عَنْ نَرْجِسٍ وَتَلْطِمُ الْوَرْدَ بَعْنَابِ

وَقَوْلِ الْمُتَنَبِّي:

(21) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 447.

بَدَتْ قَمْرًا، ومالتْ حُوطَ بَانٍ، وفاحتْ عَنَبَرًا، وَرَنْتْ غَرَالًا⁽²²⁾.

إن إدراك المزية في النص يتطلب من المتلقي امتلاك ثقافة واسعة، ورصيد لغوي، وحس فني، والقدرة على التدرج في الاستنباط، وإعمال العقل والاستدلال، إضافة إلى درايته بالمقام ومعرفة السياق اللغوي النصي الذي يستدعي أن تكون لتلك الاختيارات صبغة أسلوبية وجمالية، وهي كلها أمور توجهه لفهم المزية وإدراكها.

المزية معيار للتفاضل :

يعتبر عبد القاهر المزية وسيلة للتفاضل، ذلك أن النصوص تتفاوت قيمتها الأدبية والفنية بالقياس إلى بعضها بناءً على هذا المعيار، يقول: "وَأَنَّهُ كَمَا يَفْضَلُ هُنَاكَ النَّظْمُ النَّظْمُ، وَالتَّأْلِيفُ التَّأْلِيفُ، وَالنَّسْجُ النَّسْجُ، وَالصِّيَاغَةُ الصِّيَاغَةُ. ثُمَّ يَعْظُمُ الْفَضْلُ، وَتَكْثُرُ الْمَزِيَّةُ، حَتَّى يَفُوقَ الشَّيْءُ نَظِيرَهُ، وَالْمَجَانِسُ لَهُ دَرَجَاتٌ كَثِيرَةٌ، وَحَتَّى تَتَفَاوَتْ الْقِيَمُ التَّفَاوُتَ الشَّدِيدَ، كَذَلِكَ يُفْضَلُ بَعْضُ الْكَلَامِ بَعْضًا، وَيَتَقَدَّمُ مِنْهُ الشَّيْءُ الشَّيْءَ، ثُمَّ يَزْدَادُ فَضْلُهُ ذَلِكَ وَيَتَرَقَّى مَنْزِلَةُ فَوْقَ مَنْزِلَةٍ"⁽²³⁾. ويستبعد الجرجاني الإعراب في تحقيق المزية والتفاضل بين كلام وكلام معتبرا أن التفاضل فيه محال، لأنه لا يُتصور أن يكون للرفع والنصب في الكلام، مزيةً عليهما في كلام آخر. غير أنه تجدر الإشارة إلى أن عبد القاهر حين يقرن "بين (النظم) و(علم النحو) يوحد بينهما أحيانا، فإن ما يقصده بعلم النحو ليس هو (القوانين النحوية المعيارية) التي تحدد حدود الصواب وحدود الخطأ في الكلام (...) يتحدث عن (علم النحو) على أساس أنه الفروق بين أساليب متساوية. ولكن هذه الفروق بين التقديم والتأخير، وبين الإخبار بالوصف

(22) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، صص 449 – 450.

(23) نفسه، ص 35.

والإخبار بالفعل، وغيرها من الفروق التي حددها عبد القاهر – هي فروق في الدلالة، تحوّل الكلام من مستوى إلى مستوى آخر. هذه الفروق هي مدار المعنى والدلالة، وهي فروق (شخصية) إذا صح لنا أن نقول ذلك؛ هي خصائص (فردية) تحدد مستويات الكلام (الأدبي)، وتفرق بين كلام وكلام⁽²⁴⁾. وإنما الكلام يتفاضل ويتفاوت بناءً على ما يتضمنه من أسرار بلاغية وخصائص جمالية، وكأنه لوحة فنية أبدعها مبدع بحس مرهف تنتظم فيها الألوان والخطوط، جاعلة المتلقي يقف أمامها وقفة إعجاب وانجذاب، وعلى هذا فإن صورة اللوحة تتبدى في تشكّلها وطريقة نظمها وما بذل فيها من صنعة، يقول الجرجاني فإن "مِنَ الْكَلَامِ مَا أَنْتَ تَرَى الْمَزِيَّةَ فِي نَظْمِهِ وَالْحُسْنَ، كَالْأَجْزَاءِ مِنَ الصَّنِيعِ تَتَلَاخَقُ وَيَنْضُمُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ حَتَّى تَكْثُرَ فِي الْعَيْنِ، فَأَنْتَ لِذَلِكَ لَا تُكْبِرُ شَأْنَ صَاحِبِهِ، وَلَا تُقْضِي لَهُ بِالْحَذَقِ وَالْأَسْتَاذِيَّةِ وَسَعَةِ الذَّرْعِ وَشِدَّةِ الْمِنَّةِ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ الْقِطْعَةَ وَتَأْتِيَ عَلَى عِدَّةِ أَبْيَاتٍ"⁽²⁵⁾.

إن معايير تفاضل الكلام التي يستلهمها القارئ الحاذق هي معايير تتناسب مع طبيعة النص، يقول الجرجاني: "أن ههنا دقائق وأسراراً طريق العلم بها الروية والفكر، ولطائف مستفاها العقل، وخصائص معان ينفرد بها قوم هدوا إليها، ودلوا عليها، وكشف لهم عنها، ورفعت الحجب بينهم وبينها، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام، ووجب أن يفضل بعضه بعضاً"⁽²⁶⁾. فللاستعارة، مثلاً، مزية وفضل، والمجاز أبلغ من الحقيقة، والكناية أوقع من التصريح؛ "فنحن وإن كنا نعلم أنك إذا قلت: (هُوَ طَوِيلُ التَّجَادٍ، وَهُوَ جَمُّ الرَّمَادِ)، كَانَ أَبْهَى لِمَعْنَاكَ، وَأَنْبَلَ مِنْ أَنْ تَدْعَ الْكِنَايَةَ

(24) نصر أبو زيد، مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، قراءة في ضوء الأسلوبية، ص 15 – 16.

(25) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 88.

(26) حامد صالح الربيعي، القراءة الناقدة في ضوء نظرية النظم، ص 25.

وَتُصَرِّحُ بِالذِّي تُرِيدُ. وَكَذَا إِذَا قُلْتَ : (رَأَيْتُ أَسَدًا)، كَانَ لِكَلَامِكَ مَزِيَّةٌ لَا تَكُونُ إِذَا قُلْتَ: رَأَيْتُ رَجُلًا هُوَ وَالْأَسَدُ سَوَاءٌ، فِي مَعْنَى الشَّجَاعَةِ وَفِي قُوَّةِ الْقَلْبِ وَشِدَّةِ الْبَطْشِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ⁽²⁷⁾.

كما يبين الجرجاني أن تحقق المزية لا يقتصر على الصور البيانية، بل كذلك على المعاني من تقديم وتأخير وقصر واختصاص وفصل ووصل وحذف وغيرها من مباحث هذا العلم، ومن أمثلة ذلك ما ساقه الجرجاني عن دور الحذف في حصول المزية: "وهذا فنٌّ آخرٌ مِنْ مَعَانِيهِ عَجِيبٌ، وَأَنَا ذَاكِرُهُ لَكَ. قَالَ الْبُحْثَرِيُّ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي أَوْهَلَهَا: أَعَنْ سَفَهَ يَوْمَ الْأُبَيْرِقِ أَمْ حِلْمٍ. وَهُوَ يَذْكُرُ مُحَامَاةَ الْمَمْدُوحِ عَلَيْهِ، وَصِيَانَتَهُ لَهُ، وَدَفْعَةَ نَوَائِبِ الزَّمَانِ عَنْهُ:

وَكَمْ ذُدَّتْ عَنِّي مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ وَسُورَةِ أَيَّامٍ حَزَزْنَ إِلَى الْعَظَمِ

الْأَصْلُ لَا مُحَالَةً: حَزَزْنَ اللَّحْمَ إِلَى الْعَظَمِ، إِلَّا أَنَّ فِي مَجِيئِهِ بِهِ مُحَذُوفًا، وَإِسْقَاطَهُ لَهُ مِنْ التَّنْطِقِ، وَتَرْكِهِ فِي الضَّمِيرِ، مَزِيَّةٌ عَجِيبَةٌ وَفَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ⁽²⁸⁾.

وعلى أساس معيار المزية يوازن الجرجاني بين مجموعة من التراكيب، معتبرا أن جاهل المزية في هذه التراكيب عديم الحسِّ مِثُّ النَّفْسِ. ومن أمثلة ذلك ما عقده في (دلائل الإعجاز) من مقارنات يتتبع فيها سر تفوق عبارة عن أخرى :

- (أَلْقَيْتُ حَبْلَهُ عَلَى غَارِهِ) مع (خَلَيْتُهُ وَمَا يَرِيدُ، وَتَرَكْتُهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ).

(27) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 70.

(28) نفسه، ص 171.

- (أَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتَوَجِّرُ أُخْرَى)، مع (أَرَادَ تَتَرَدَّدُ فِي الَّذِي دَعَوْتُكَ إِلَيْهِ، كَمَنْ يَقُولُ: أَخْرُجْ وَلَا أَخْرُجْ، فَيُقَدِّمُ رِجْلًا وَيُوجِّرُ أُخْرَى).
- (هُوَ كَثِيرُ رِمَادِ الْقَدَرِ)، مع (هُوَ كَثِيرُ الْقَرَى وَالضِّيَافَةِ).
- ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾⁽²⁹⁾، مع (اشْتَدَّتْ مُحِبَّتُهُمْ لِلْعِجْلِ وَغَلَبَتْ عَلَى قُلُوبِهِمْ).
- ﴿وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾⁽³⁰⁾، مع (وَشَابَ رَأْسِي كَلَه) أَوْ (أَبْيَضَ رَأْسِي كُلَّهُ).
- يقول الجرجاني: "لَا يَكُونُ لِإِخْدَى الْعِبَارَتَيْنِ مَزِيَّةٌ عَلَى الْأُخْرَى، حَتَّى يَكُونَ لَهَا فِي الْمَعْنَى تَأْثِيرٌ لَا يَكُونُ لِصَاحِبَيْهَا"⁽³¹⁾، ولتوضيح ذلك نسوق المثال الآتي :
- العبارة (أ) : (زيد كالأسد) تشبيه زيد بالأسد = عبارة تتضمن مزية (1).
 - العبارة (ب) : (كأن زيدا الأسد) زيادة في معنى التشبيه (حتى يتوهم أنه أسد في صورة آدمي) = عبارة تتضمن مزية (2) + وقوع تأثير عند المتلقي.
- وعليه، فإن المزية (2) التي يتضمنها التركيب في العبارة (ب) أقوى من المزية (1) التي يتضمنها التركيب في العبارة (أ). وهكذا يمكن القول إن مفهوم النظم عند الجرجاني "يتسع ويتدرج ليشمل ويستوعب كل أنواع الخطاب ما يقتصر منها على تحقيق التواصل والإعلام، وما يتجاوز هذا متضمنا إياه إلى تحقيق التأثير والفعالية، ولكن مع ملاحظة أن التأثير بدوره يتدرج ويتفاوت وفقا لكل من كيف وكم حضور النظم"⁽³²⁾.

(29) سورة البقرة، الآية 93.

(30) سورة مريم، الآية 4.

(31) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 258.

(32) طارق النعمان، اللفظ والمعنى، بين الإيديولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، ص 365.

تحفل نصوص الجرجاني بالعديد من المقارنات التي كان يروم من خلالها بيان مزية تركيب عن تركيب وموقعه وحظه من القبول وأثره على النفس ووقعه على القلب. ومن خلال عقد هذه المقارنات يبين عبد القاهر من خلال ما ساقه من شواهد أن القرآن معجز بنظمه مزيته تفوق كلام البشر؛ "لأنه كان يبحث عن قيم وخصوصيات توضع عليها اليد وتعد، لذا كانت مسألة تفاضل الكلام، وتدرجه في سلم البلاغة عنده أساسية تدخل في صلب البحث النقدي؛ لأنه يريد أن يصل إلى الإقناع بعلو بلاغة القرآن التي هي سبب إعجازه، لذلك فهو يلح على تفاوت قيم الكلام ومنازله من الجودة، وهذا هو السبب في أنه قد اتخذ من الشعر سبيلا للوصول إلى إعجاز القرآن الكريم"⁽³³⁾.

مواطن المزية في النص الأدبي :

يتطلب تحديد الخصائص الجمالية للنص الأدبي النظر إلى مواطن المزية أو المزايا وموقعها وأسرار توظيفها مما يحقق لهذا النص صفة الجودة الفنية، وتبرز حذاقة مبدعها. ويكشف الجرجاني أن النقاد والبلاغيين قبله دأبوا على التفريق بين كلام مزيته في (لفظه)، وكلام مزيته في (نظمه)، أضف إلى ذلك إغفالهم بيان فاعلية المعنى النحوي في تحقيق المزية وتفسيرها، مستدركا ومنبها في الآن نفسه إلى الخلط والالتباس الذي شابه هذا التفريق في إدراك فاعلية المزية في الكلام. يقول صاحب الدلائل والأسرار: "وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّ هَهُنَا كَلَامًا حُسْنُهُ لِلْفُظِ دُونَ النَّظْمِ، وَآخِرُ حُسْنُهُ لِلنَّظْمِ دُونَ اللَّفْظِ، وَثَابِتًا قَدْ أَتَاهُ الْحُسْنُ مِنَ الْجِهَتَيْنِ، وَوَجَبَتْ لَهُ الْمَزِيَّةُ بِكِلَا الْأَمْرَيْنِ. وَالْإِشْكَالُ فِي هَذَا الثَّالِثِ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزَالُ تَرَى الْعَلَطَ قَدْ عَارَضَكَ فِيهِ، وَتَرَكَ قَدْ حِفَّتْ فِيهِ عَلَى النَّظْمِ، فَتَرَكْتَهُ وَطَمَحْتَ بِبَصَرِكَ إِلَى اللَّفْظِ، وَقَدَّرْتَ فِي حُسْنِ كَانَهُ بِهِ

(33) حامد صالح الربيعي، القراءة الناقدة في ضوء نظرية النظم، ص 25.

وَبِالْلَفْظِ، أَنَّهُ لِلْفَظِ خَاصَةٌ⁽³⁴⁾. لقد أشار الجرجاني إلى أن المزية التي ينبغي على المتلقي أن يبرزها والتي يتفاضل بها كلام عن كلام، تكون إما في:

- اللفظ دون النظم.
- النظم دون اللفظ.
- اللفظ والنظم معا.

يقول طارق النعمان معلقا على هذا التقسيم الثلاثي : "إذا أتينا إلى تحديد هدف عبد القاهر من هذا التقسيم فإنه يمكن القول إنه يتمثل في الاستدراك على من سبقوه وعلى معاصريه في عدم انتباههم إلى ما يتيح (النظم) متمثلا في المستوى (الدلالي - النحوي) = (المعنى النحوي) من إمكانيات لتشكيل وتحقيق المزية - وانحسار نظرهم واقتصارهم على قرن المزية بمدلولالات (اللفظ) من: استعارة وكناية وتمثيل ومجاز ذلك أنه يرى - وكما هو واضح في النص - أنهم لم يهدروا فعالية هذا المستوى فحسب، بل إنهم يخلطون بفعاليته بفعالية غيره ويردونه إليه خاصة في النمط الثالث الذي ينعتة عبد القاهر بكونه نمطا إشكالا، ولهذا فإن عبد القاهر يستهدف إزالة الخلط الذي هممه البلاغيون والنقاد فيما يتعلق بهذا النمط الثالث، والتنبيه إلى فعالية المستوى النحوي في تشكيل المزية إن بمفرده، وإن بتآزره مع آلية (التدال) = (المعنى / معنى المعنى) وهو ما يتحقق مع النمط الثالث الذي يأتيه الحسن من الجهتين وتجب له المزية بكلا الأمرين، وهو أكثر الأنماط التباسا وإشكالا ومراوغة في تحديد المزية، نظرا لاندماج الآليتين معا : آلية (معاني النحو) وآلية (التدال) وتفاعلهما فيه"⁽³⁵⁾.

(34) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، صص 99 - 100.

(35) طارق النعمان، اللفظ والمعنى، بين الإيديولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، ص 262.

1- مزية اللفظ دون النظم :

يشترط الجرجاني أن وقوع المزية في اللفظ مقرون بما يحدثه معنى هذه اللفظة داخل التركيب، يقول الجرجاني: "فإنَّما نرى اللَّفْظَةَ تُكُونُ فِي غَايَةِ الْفَصَاحَةِ فِي مَوْضِعٍ، وَنَرَاهَا بِعَيْنِهَا فِيمَا لَا يُخَصَّى مِنَ الْمَوَاضِعِ وَلَيْسَ فِيهَا مِنَ الْفَصَاحَةِ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ. وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ، لِأَنَّ الْمَزِيَّةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا نَصِفُ اللَّفْظَ فِي شَأْنِنَا هَذَا بِأَنَّهُ فَصِيحٌ، مَزِيَّةٌ تَحْدُثُ مِنْ بَعْدِ أَنْ لَا تَكُونَ، وَتَظْهَرُ فِي الْكَلِمِ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَدْخُلَهَا النَّظْمُ. وَهَذَا شَيْءٌ إِنْ أَنْتَ طَلَبْتَهُ فِيهَا وَقَدْ جِئْتَ بِهَا أَفْرَاداً لَمْ تَرَمْ فِيهَا نَظْماً، وَلَمْ تُحْدِثْ لَهَا تَأْلِيفاً، طَلَبْتَ مُحَالاً. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، وَجَبَ أَنْ يَعْلَمَ قِطْعاً وَضُرُورَةً أَنَّ تِلْكَ الْمَزِيَّةَ فِي الْمَعْنَى دُونَ اللَّفْظِ" (36).

وتتشكل المزية التي تكون من جهة اللفظ في الصور المجازية التي تتسم بعدول اللفظ عن معناه الظاهر، ويتأتى ذلك من خلال الاستعارة والتمثيل والمجاز والكناية مما يوجب المزية والفضيلة ويكسب اللفظ الفخامة والنبيل. يقول الجرجاني: "فَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لَيْسَتْ الْمَرَايَا الَّتِي بَجِدْهَا لَهُذِهِ الْأَجْنَاسِ عَلَى الْكَلَامِ الْمَثْرُوكِ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَالْمُبَالَغَةِ الَّتِي تُحْسِنُهَا فِي أَنْفُسِ الْمَعَانِي الَّتِي يَقْصِدُ الْمَتَكَلِّمُ بِخَبْرِهِ إِلَيْهَا، وَلَكِنَّهَا فِي طَرِيقِ إِثْبَاتِهِ لَهَا، وَتَقْرِيرِهِ إِلَيْهَا، وَأَنَّكَ إِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ: (إِنَّ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ أَنْ تَكْسِبَ الْمَعَانِي مَزِيَّةً وَفَضْلاً، وَتَوْجِبَ لَهَا شَرْفاً وَتُبْلاً، وَأَنْ تُفَحِّمَهَا فِي نَفْسِ السَّامِعِينَ) فَإِنَّهُمْ لَا يَعْنُونَ أَنْفُسَ الْمَعَانِي، كَالَّتِي يَقْصِدُ الْمَتَكَلِّمُ بِخَبْرِهِ إِلَيْهَا، كَالْفَرَى وَالشَّجَاعَةِ وَالتَّرَدُّدِ فِي الرَّأْيِ، وَإِنَّمَا يَعْنُونَ إِثْبَاتَهَا لِمَا تَتَبُّهُ لَهُ وَيُخْبِرُ بِهَا عَنْهُ. فَإِذَا جَعَلُوا

(36) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 401.

لِلْكِتَابَةِ مَزِيَّةٌ عَلَى التَّصْرِيحِ، لَمْ يَجْعَلُوا تِلْكَ الْمَزِيَّةَ فِي الْمَعْنَى الْمَكْنَى عَنْهُ، وَلَكِنْ فِي إِثْبَاتِهِ
لِلَّذِي يَثْبُتُ لَهُ. وَذَلِكَ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الْمَعْنَى الَّتِي يُقْصَدُ الْحَبَرَ بِهَا لَا تَتَغَيَّرُ فِي أَنْفُسِهَا
بِأَنَّ يُكْنَى عَنْهَا بِمَعَانٍ سِوَاهَا، وَيَتَرُكُ أَنْ تَذَكَرَ بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي هِيَ لَهَا فِي اللَّغَةِ⁽³⁷⁾.

يؤكد الجرجاني على أن المزية في هذا الضرب مردها إلى العدول والاتساع والطريقة
التي يؤدي بها المعنى، ومالها من قدرة على التصوير والتأثير، ف"ليس بغريب أن يكون
لهذه الأساليب التي تقوم على العدول باللفظ عن ظاهر معناه تلك المزية البلاغية،
بحيث يكون لوجودها في النص قيمة فنية تعلني من شأنه، لأنها تعتمد على الخيال
الذي يكون به الجماد ناطقا، وتصور المعنى بطريقة فيها نوع من الإثارة الذهنية
للمتلقي، لبعدها عن المعتاد والمألوف، وهذه الأساليب المجازية بمالها من قيمة فنية،
هي مصدر المزية في الدلالة للكلام، لما تضيفه عليه من جمال أخاذ"⁽³⁸⁾.

2- مزية النظم دون اللفظ :

يشير الجرجاني إلى أن العمود الأساس الذي بنيت عليه نظريته في النظم هو معاني
النحو، يقول: "فَلَسْتُ بِوَاحِدٍ شَيْئًا يَرْجِعُ صَوَابُهُ إِنْ كَانَ صَوَابًا، وَخَطْؤُهُ إِنْ كَانَ
خَطَأً، إِلَى (النَّظْمِ)، وَيَدْخُلُ تَحْتَ هَذَا الْإِسْمِ، إِلَّا وَهُوَ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي النَّحْوِ قَدْ
أُصِيبَ بِهِ مَوْضِعُهُ، وَوُضِعَ فِي حَقِّهِ أَوْ عُومِلَ بِخِلَافِ هَذِهِ الْمَعَامَلَةِ، فَأَزِيلَ عَنْ مَوْضِعِهِ،
وَاسْتَعْمَلَ فِي غَيْرِ مَا يَنْبَغِي لَهُ، فَلَا تَرَى كَلَامًا قَدْ وَصَفَ بِصِحَّةِ نَظْمٍ أَوْ فَسَادِهِ، أَوْ
وَصَفَ بِمَزِيَّةٍ وَفَضْلٍ فِيهِ، إِلَّا وَأَنْتَ تَجِدُ مَرْجِعَ تِلْكَ الصِّحَّةِ وَذَلِكَ الْفَسَادِ وَتِلْكَ الْمَزِيَّةِ
وَذَلِكَ الْفَضْلِ، إِلَى مَعَانِي النَّحْوِ وَأَحْكَامِهِ، وَوَجَدْتُهُ يَدْخُلُ فِي أَصْلِ مِنْ أَصُولِهِ،

(37) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، صص 446 – 447.

(38) حامد صالح الربيعي، القراءة الناقدة في ضوء نظرية النظم، ص 36.

وَيَتَّصِلُ بِبَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ"⁽³⁹⁾. فحُسن توخي معاني النحو وملاءمتها مع المعاني النفسية هو الذي يكسب النظم المزية والقيمة الفنية، ولا يرتبط هذا الحسن بمعنى نحوي دائماً وأينما حل، فقد يحسن هذا المعنى في موقع، وقد لا يحسن في موقع آخر. وبالتالي يعزى مرجع المزية في النظم إلى حسن التأليف الذي يراعي الفروق الدقيقة بين المعاني النحوية، والتفاضل بين نظم ونظم مرده إلى ما تتضمنه البنية التركيبية من صنعة فنية وخصائص أسلوبية التي لا تتأتى بالكلم المفردة "وَأَمَّا نَعْمَدُ إِلَى الْأَحْكَامِ الَّتِي تَحْدُثُ بِالتَّأْلِيفِ وَالتَّرْكِيبِ. وَإِذْ قَدْ عَرَفْتَ مَكَانَ هَذِهِ الْمَزِيَّةِ وَالْمُبَالَغَةِ الَّتِي لَا تَزَالُ تَسْمَعُ بِهَا، وَأَنَّهَا فِي الْإثْبَاتِ دُونَ الْمُثَبَّتِ، فَإِنَّ لَهَا فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ سَبَباً وَعِلَّةً"⁽⁴⁰⁾.

ومن هذه الفروق والدقائق ما يتضمنه أسلوب التقديم والتأخير في تحقيق المزية، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾⁽⁴¹⁾، ف"ليس بِخَافٍ أَنْ لِقَدِيمِ (الشركاء) حُسْنًا وَرَوْعَةً وَمَأْخِذًا مِنَ الْقُلُوبِ، أَنْتَ لَا بَحْدُ شَيْئاً مِنْهُ إِنْ أَنْتَ أَخَّرْتَ فَقُلْتَ: (وَجَعَلُوا الْجِنَّ شُرَكَاءَ اللَّهِ)، وَأَنْتَ تَرَى حَالَكَ حَالَ مَنْ نُقِلَ عَنِ الصُّورَةِ الْمُهِجَةِ وَالْمُنْظَرِ الرَّائِقِ وَالْحُسْنِ الْبَاهِرِ، إِلَى الشَّيْءِ الْعَقْلِي الَّذِي لَا تَحْلِي مِنْهُ بِكَثِيرٍ طَائِلٍ، وَلَا تَصِيرُ النَّفْسُ بِهِ إِلَى حَاصِلٍ. وَالسَّبَبُ فِي أَنْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، هُوَ أَنَّ لِلتَّقْدِيمِ فَائِدَةً شَرِيفَةً وَمَعْنًى جَلِيلًا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ مَعَ التَّأْخِيرِ"⁽⁴²⁾. إن المزية هنا تظهر

(39) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، صص 82 – 83.

(40) نفسه، ص 72.

(41) سورة الأنعام، الآية 100.

(42) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 286.

في البنية التركيبية للكلام، حيث جاء التقديم مغنيا عن جملة، حاملا من المعاني ما لا يؤديه التأخير، فتحقق للكلام بذلك صفة الحسن والفضيلة.

تختلف المزية التي تقع في النظم باختلاف مواضعها، ومدى إتقان الصنعة الفنية في معانيها النحوية، " (إذ ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضوع، وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤم). والنظم بهذه الدلالة هو ما يعنيه عبد القاهر في القسم الثاني من الكلام الذي تكون المزية فيه ل(النظم) دون (اللفظ)، بحيث نكون إزاء هذه المظاهر الأسلوبية، وتكون موظفة على نحو فعال، في خطاب لا يتضمن استعارات أو كنايات أو تمثيلات، أو يكون ما فيه من هذه الأنواع من قبيل الاستعارات والكنايات والمجازات الميتة أو المستهلكة التي تكون فعاليتها محدودة أو معدومة مقارنة بفعالية المستوى النحوي ومظاهره الأسلوبية في هذا الخطاب" (43).

3- مزية اللفظ والنظم معا :

أما النمط الثالث الذي تتبدى فيه مزية الكلام فيكون في اللفظ والنظم معا، وهو نمط تكثر فيه المزية وتدرج بالفكر، ولطائف يوصل إليها بثناقب الفهم. يقول حامد صالح الربيعي: "إن هذا النمط من الكلام تحدث فيه الصنعة الفنية على المستويين؛ على مستوى البنية التركيبية، وما يحدث فيها من تفاعل بين المعاني النحوية، وعلى مستوى البنية الدلالية، وما يحدث فيها من عدول باللفظ عن ظاهر معناه، فهو يجمع بين الحسنين، وتلتقي فيه الفضيلتان، ولكن لخفاء أمر النظم ووعورة مسالك النظر فيه واكتشاف مزاياه، فإن النفس تتعلق بما يقع في هذا النوع من الكلام من مظاهر

(43) طارق النعمان، اللفظ والمعنى، بين الإيديولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، ص 264.

العدول؛ لأنها أوضح أمراً، وأقرب إلى الاكتشاف، وأسرع إلى التصوير، وقد استشهد الإمام على ذلك بعدد من الشواهد التي وقع فيها الاشتباه في أمر المزية⁽⁴⁴⁾.

ويسوق الجرجاني مثالا موضحا ذلك: "وَمِنْ دَقِيقِ ذَلِكَ وَخَفِيَّتِهِ أَنَّكَ تَرَى النَّاسَ إِذَا ذَكَرُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4]، لَمْ يَزِيدُوا فِيهِ عَلَى ذِكْرِ الْإِسْتِعَارَةِ، وَلَمْ يَنْسُبُوا الشَّرْفَ إِلَّا إِلَيْهَا، وَلَمْ يَرَوْا لِلْمَزِيَّةِ مُوجِبًا سِوَاهَا، هَكَذَا تَرَى الْأَمْرَ فِي ظَاهِرِ كَلَامِهِمْ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا هَذَا الشَّرْفُ الْعَظِيمُ، وَلَا هَذِهِ الْمَزِيَّةُ الْجَلِيلَةُ، وَهَذِهِ الرَّوْعَةُ الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى النَّفُوسِ عِنْدَ هَذَا الْكَلَامِ لِمُجَرَّدِ الْإِسْتِعَارَةِ، وَلَكِنْ لِأَنَّ سِلْكَ الْكَلَامِ طَرِيقٌ مَا يُسْنَدُ الْفِعْلَ فِيهِ إِلَى الشَّيْءِ، وَهُوَ لِمَا هُوَ مِنْ سَبَبِهِ، فَيَرْفَعُ بِهِ مَا يُسْنَدُ إِلَيْهِ، وَيُؤْتَى بِالَّذِي لِلْفِعْلِ لَهُ فِي الْمَعْنَى مَنْصُوبًا بَعْدَهُ، مَبِينًا أَنَّ ذَلِكَ الْإِسْنَادَ، وَتِلْكَ التَّسْبِئَةَ إِلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ، إِنَّمَا كَانَا مِنْ أَجْلِ هَذَا الثَّانِي، وَلِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مِنَ الْإِصْصَالِ وَالْمُلَابَسَةِ"⁽⁴⁵⁾. ثم يدعوننا عبدالقاهر إلى المقارنة بين قولنا: (اشتعل شيب الرأس)، أو (الشيب في الرأس)، وبين نص الآية الكريمة فيقول: "ثُمَّ تَنْظُرُ: هَلْ بَحْدُ ذَلِكَ الْحُسْنِ، وَتِلْكَ الْفَخَامَةُ؟ وَهَلْ تَرَى الرَّوْعَةَ الَّتِي كُنْتَ تَرَاهَا؟ فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا السَّبَبُ فِي أَنْ كَانَ (اشْتَغَلَ) إِذَا اسْتَعْبَرَ لِلشَّيْبِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ كَانَ لَهُ الْفَضْلُ؟ وَلَمْ يَأْنِ بِالْمَزِيَّةِ مِنَ الْوَجْهِ الْآخِرِ هَذِهِ الْبَيِّنَةُ؟ فَإِنَّ السَّبَبَ أَنْ يُفِيدَ، مَعَ لَمَعَانِ الشَّيْبِ فِي الرَّأْسِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْمَعْنَى، الشُّمُولُ، وَأَنَّهُ قَدْ شَاعَ فِيهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ نَوَاحِيهِ، وَأَنَّهُ قَدْ اسْتَعْرِقَهُ، وَعَمَّ جُمْلَتَهُ (...). وَهَذَا مَا لَا يَكُونُ إِذَا قِيلَ: (اشْتَغَلَ شَيْبُ الرَّأْسِ، أَوْ الشَّيْبُ فِي الرَّأْسِ) (...) وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الْآيَةِ الْأُولَى شَيْئًا آخَرَ مِنْ جِنْسِ النَّظْمِ، وَهُوَ تَعْرِيفُ (الرَّأْسِ) بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ، وَإِفَادَةُ مَعْنَى الْإِضَافَةِ مِنْ غَيْرِ إِضَافَةٍ،

(44) حامد صالح الربيعي، القراءة الناقدة في ضوء نظرية النظم، ص 41.

(45) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 100.

وَهُوَ أَحَدُ مَا أُوجِبَ الْمَزِيَّةُ، وَلَوْ قِيلَ: (وَاشْتَعَلَ رَأْسِي)، فَصُرِّحَ بِالْإِضَافَةِ، لَذَهَبَ بَعْضُ الْحُسْنِ⁽⁴⁶⁾. إن التركيب في قوله تعالى (واشتعل الرأس شيبا) يتضمن مزيتين :

- **مزية اللفظ** : المتمثلة في الاستعارة التي تتحقق فيها المزية من خلال التلطف في ما يراد إثباته. وذلك عن طريق اختيار الكلمات، هذا الاختيار يكون من بين البدائل التي تتيحها اللغة، هو الذي يخدم الصنعة الفنية ويضفي للنص أبعادا جمالية.

- **مزية النظم**: تتبدى من خلال طريقة التأليف والترتيب وتوخي معاني النحو من إسناد، وتعريف (تعريف الرأس بالألف واللام)، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة... ومطابقة كل ذلك للمعاني النفسية والأغراض المقصودة.

وهكذا يربط الجرجاني "بين مزايا وجماليات البنية التركيبية للنص وبين المعاني النحوية، وما لها من فاعلية في النظم، فهذه الفاعلية عنده جزء أساسي من حيوية اللغة وقدرتها على أداء كثير من وظائفها، فنظام الكلمات ونوع الترابط والانفصال بين العبارات، وكيفية التأليف بين الظواهر البلاغية، كل ذلك كان مجالا واسعا لكشف إمكانات غير قليلة"⁽⁴⁷⁾. وهكذا يعتبر عبد القاهر أن أعلى درجات المزية هي تلك التي تتبدى من خلال محوري الاختيار والتأليف، فكل علاقة لغوية تستدعي وجود علاقة أخرى تتألف معها وتتناسق، ولهذا فهي تكون قرينة لعلامة لغوية أخرى تؤسس معها وحدة أكبر تنسجم فيها وتتلاءم المزية الناتجة عن مستوى فاعلية النظم وطريقة التأليف، والمزية الناتجة عن مستوى حسن اختيار الكلمات. "وإذا كان علماء اللغة المعاصرون لا يفصلون بين المستويين، وينظرون إلى المعنى الدلالي للنص على أنه

(46) نفسه، صص 101 - 102.

(47) حامد صالح الربيعي، القراءة الناقدة في ضوء نظرية النظم، ص39.

محصلة لتفاعل هذين النوعين من العلاقات، فإن عبد القاهر يفصل بينهما أحيانا، ويدرك ترابطهما أحيانا أخرى. (المعنى) في الأمثلة التي يناقشها عبد القاهر في النص له ظاهر هو محصلة علاقاته السياقية، وله باطن هو محصلة علاقاته الاستبدالية. وهذا الباطن هو ما يطلق عليه عبد القاهر (معنى المعنى). وهكذا يتحول (الدال اللفظي) من أن يكون مجرد طرف في العلاقات السياقية على مستوى (النظم) إلى أن يثير الانتباه إلى طبيعته الذاتية، إلى حقيقة كونه (دالا). ولعل هذا ما دفع عبد القاهر إلى القول بأن من الكلام ما تكون المزية فيه راجعة إلى اللفظ والنظم معا، ومنه ما تكون المزية راجعة إلى (النظم) وحده⁽⁴⁸⁾.

خاتمة :

لقد استطاع الجرجاني تمثل أفكاره سابقه وتمحيصها فيما يتعلق بمفهوم المزية وذلك بغية بلورة رؤية واضحة حول هذا المفهوم الذي يشكل جوهر نظريته في النظم. وقد عد عبد القاهر المزية آلية إجرائية وتطبيقية في التمييز بين النصوص ومعرفة سر تفوق بعضها عن بعض، معتبرا أن تشكيل هذه المزية يتطلب متكلما واعيا بمسالك القول وقادرا على توليد الدلالات العميقة، كما أن الكشف عنها يحتاج كذلك متلقيا حاذقا يكاد ويجتهد لاستنتاج تلك الدلالات مستعينا بفكره ورويته، باحثا عن المزية ومواطن الجمال في النص، متتبعا سر إبداعه وتفوقه، خصوصا إذا كان هذا النص متميزا كما هو الشأن بالنسبة للنص المعجز.

ولا شك أن هناك الكثير مما يمكن أن يقال عن مفهوم المزية عند عبد القاهر؛ فثم جوانب غنية خصبة تُجلي هذا المفهوم وتكشفه، ولكن بسبب هذا الغنى والعمق في

(48) نصر أبو زيد، مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، قراءة في ضوء الأسلوبية، ص 22.

فكر الجرجاني لا يمكن لقراءة واحدة أن تكشف كل هذه الجوانب. ذلك أن أفكاره تعكس نضجا نحويا وبلاغيا ونقديا تثير تساؤلات أكثر مما تقدم من أجوبة قاطعة، إنها أفكار تفتح باب الاجتهاد مشرعا على مصراعيه. وعليه، فإن العودة إلى نصوص الدلائل والأسرار هي عودة إلى نصوص ثرية لم تفقد جدتها وبريقها، وهي بذلك تعكس رؤية ثاقبة لصاحبها، ووعيا غير مسبوق بالقضايا التي يعالجها، فما تضره هذه الكتابات أكثر مما تظهره.